مرجعية علي بن موسى الرضا - تصحيح مفاهيم المتلقي وخلق آفاق جديدة وتوقعات صادمة

الشيخ الدكتور عبد القادر يوسف ترني
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة اللبنانية، لبنان
abedtarnini@hotmail.com

Ali bin Musa Al-Ridha reference - Correcting the recipient's concepts and creating new horizons and unexpected predictions

Sheikh Dr. Abdel Qader Yousef Tarni
Assistant Professor , Department of Arabic Language and Literature , Lebanese University , Lebanon

الملخص:ـ

هذا البحث يدرس خطاب الإمام الرضا وأثره على المتلقي وذلك من خلال الإجابات التي كان يجيب بها عن أسئلة السائلين فيصحح المفاهيم المغلوطة، ويفتح أمام العلماء آفاقا جديدة تصدم السائلين وتوجههم نحو قراءات غير متوقعة للنصوص، كما يسلط الأضواء على إمامة علي بن موسى الرضا بصفته مرجعا علميا وأخلاقيا ودينيا قادرا على نشر العدالة وتحقيق الأمن الاجتماعي واحتواء جميع الشرائح والأفكار والمعتقدات احتواء المعلم والموجِّه والمقوِّم للمفاهيم، هذا إلى جانب كونه وارثا للعلوم النبوية، استطاع توجيه الناس إلى المرجعية التي تمثلهم تمثيلا حقيقيا، مثبتا فرادة هذه المرجعيَّة وتميُّزها من خلال الْتفاف الأمَّة حولها سواء في ذلك المقلِّدون وغير المقلِّدين أو المخالفين والزنادقة وغيرهم.

وفي هذا الإطار يُظهر البحث النجاح الباهر الذي حققه الإمام في تثبيت مرجعية آبائه الذين ظلمتهم السياسات القائمة على الإلغاء وسفك الدماء حيث قمعتهم وحاربتهم وقتلتهم خوفا على الملك والسلطة الذين كانوا أزهد الناس بها؛ وإذا ثبت لدينا أن الإمام الرضا كان مرجعا للأمة في زمانه، فهذا يحتم على الباحثين دراسة تراثه وتراث أجداده دراسة أصيلة بعيدة عن التقوقع والتعصب المذهبي معتمدين المناهج العديدة مستفيدين من إجراءاتها، كما استفدنا في هذا البحث من منهج الأسلوبية ومنهج التلقي كي نبرز المكانة المرموقة التي وصل إليها الإمام إلى جانب الدور الفريد الذي مارسه بصفته مصلحا وعالما ومرجعا تربَّع على عرش العالمية في ذلك الزمان.

الكلمات المفتاحية: الإمام الرضا، المرجعية، المتلقي، أفق التوقعات.

Abstract:-

This research studies Imam al-Ridha's speech and its impact on the recipient, through answering the questions of the interrogators, correcting misconceptions, and opening up new horizons for scientists that surprise the interrogators and direct them towards unexpected readings of the texts, and sheds light on the Imamate of Ali bin Musa al-Ridha as a scientific, moral, and religious reference, able to spread justice, achieve social security, combine all society layers, ideas and beliefs, as the teacher, the guide, and the straightener of concepts. In addition of being an inheritor of the prophetic sciences, he was able to guide people to the reference that represent them a real representation, proving the uniqueness of this reference by gathering the nation around it either the imitators and non-imitators or the violators, heretics and others.

In this context, the research shows the brilliant success achieved by the Imam in establishing the consultant of his forefathers who were mistreated by policies based on abolition and bloodshed, where they were suppressed, fought and killed by those leaders who worship the throne, and if it is proven to us that Imam al-Rida was a reference for the nation in his time, then this makes it imperative for researchers to study his heritage and the heritage of his ancestors in an authentic study far from insularity and sectarian fanaticism, relying on numerous methods benefiting from their procedures, as we have benefited in this research from the stylistic method and the receptive method in order to highlight the prestigious position that he has reached, in addition to the unique role that the Imam played as a reformer, scientist, and a reference who rose to the throne of the world at that time.

Key words: Imam Al-Rida , the reference, the recipient, the horizon of expectations.

المقدمة:ـ

(صديقُ كلِّ امرئٍ عَقْلُهُ، وعَدُوُّهُ جَهْلُهُ)[١] الإمام الرضا عليه السلام .

علي بن موسى الرضا علم من أشهر الأعلام الذين عاشوا في القرن الثاني الهجري وتركوا أثرا كبيرا في التراث العربي والإسلامي، وقد لاقى إجماعا عديم النظير، إذ كان محطَّ أنظار العلماء من المحدِّثين والفقهاء والشعراء والمقلِّدين والمخالفين والمؤمنين وغير المؤمنين وأتباع جميع الديانات؛ مع تلك المكانة السياسيَّة التي أجبره الخليفة العباسي المأمون[٢] على تقلُّدها حيثُ عيَّنه وليًّا لعهده في حياته، فكان موضعَ إجلال السلاطين والوزراء والعلماء وعامة الناس واحترامِهم، ولا سيما أنَّ زهده بجميع المناصب كان السمة البارزة التي ترجمت مذهبه ومذهب آبائه وحقيقة نظرتهم إلى السلطة.

ولأن الرضا كان مرجعا للأمة على اختلاف توجهات أبنائها وعقائدهم وديانـاتهم وانتماءاتهم وعلومهم، وجدتُ الواجب يحتِّم عليَّ البحث في شخصيته الفريدة، كونه علما متميِّزا ومرجِعا للأمة، مع تلك المكانة التي احتلها في نفوس المعتقدين به إماما معصوما من الأئمة الاثني عشر، إذ كان الإمام الثامن الذي عاصر المرحلة الذهبية للدولة العباسية، فعاصر الخليفة المامون الذي كان على رأس الدولة يمثِّل دَوْرَ الخليفةِ العالم المطَّلع المحبِّ للعلم والمقرِّب للعلماء المقدِّر لهم.

أما الجانب الذي اخترته للدراسة مسلِّطا عليه الأضواء، فهو الجانب المرجعيُّ الذي كان المعلَم البارز في هذه الشخصيَّة الاستثنائيَّة؛ وعند الحديث عن المرجعيَّة فهذا يعني أنَّ الإمام تجاوز كلَّ العوائق الفكريَّة والخلافاتَ المذهبيةِ والعَقَديَّة، وكان هو الميزانَ الظاهرَ والملاذَ الآمنَ والموئل الضامن في العلوم العقلية والنقلية وحقائق معانيها وتأويلاتها وأبعادها وإشاراتها عند جميع العلماء بلا منازع.

ولأن الدراسة ستتناول هذا الجانب من شخصية الإمام وطبيعة تأثيره في المتلقين من عموم الناس المؤمنين بإمامته أو المعترفين بعلومه وبفرادته على حد سواء فقد جاءت الدراسة مقسمة على النحو التالي:

- التمهيد: أعرِّف من خلاله بشخصية الإمام الرضا ومكانته العلمية والدينية والمرجعية التي كانت موضع اتفاق بين جميع أطياف المجتمع ووجهائهم في كل البلدان التي

زارها أو مرَّ فيها.

- القسم الأول: ويعالج مرجعية الرضا في الأوساط التي تقلده من خلال إجاباته على أسئلتهم وكيفية تلقيهم خطابه.
- القسم الثاني: أفق التوقعات الصادمة التي ثبَّتت مرجعية الإمام لدى سؤال غير المقلدين
- القسم الثالث: وفيه يتم توضيح طبيعة تلقِّي المخالفين لآفاق عقلية وقواعد علمية جديدة تؤكِّد مرجعية الرضا للسائلين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية.

وإذ أخوض غمار فكر الإمام الرضا باحثا في خلفيات هذه الشخصية وسموِّ صاحبها ورجاحة فكره وتألُّقه ومقدار العلوم التي كان يتمتع بها من زاوية واحدة هي إجابته عن أسئلة السائلين ودور تلك الإجابات وتأثيرها على المتلقِّين، أعترف بأنني أعجز من أن أصل إلى دراسة وافية لشخصية استثنائة بكل المعايير؛ إلا أني أرجو بأن أكون قد فتحت كوةً بسيطة في جدار البحث، وذلك من خلال ما سطَّره علماء السنة الذين التقوا الإمام الرضا وحدثوا عنه واعترفوا بإمامته، ليقوم الباحثون بتلمس آثاره والسبب الذي أسدل الستار على مرجعيةٍ كانت تمثل الأمة كل الأمة، في حين تقتصر مرجعية هذه الشخصية اليوم على أتباع المذهب الإمامي الذين لا يزالون يعظمون الإمام ويدرسون آثاره بعمق.

التمهيد:ـ

ليس من شأن هذا البحث أن يترجم للإمام علي بن موسى الرضا وهو من هو مكانةً وعلمًا وفضلًا وصلاحًا وإمامةً وعصمةً وولايةً شهد له بها معظم أهل زمانه، لكن لا بدَّ قبل البدء بالبحث من إلقاء ظلال على مكانة الرضا عند بعض من ترجم له من أعلام أهل السنة والجماعة على وجه الخصوص، خصوصا وأن المبتغى المراد والهدف الأساس من البحث إثبات الوقائع التي تدلل على مرجعية الإمام الرضا ووراثته علوم آل البيت، ما يؤكِّد على علوِّ مكانتهم وعلى مرجعيَّتهم العامَّة للأمَّة؛ إلا أنَّ الظروف التي ساعدت الرضا على سطوع نجمه وإقبال الخلائق عليه لم تساعد غيره؛ من أجل ذلك ارتأيت الرجوع في ترجمته إلى غير كتب الإمامية الذين يعتقدون إمامته وعصمته وتقدمه على جميع أهل زمانه بلا

منازع؛ ولعل خدمة البحث بذلك تكون أنجع وأقرب إلى الحيادية والتجرد.

ترجم الصفدي للإمام الرضا فقال: "عَلِيّ بن مُوسَى بن جَعْفَر بن مُحَمَّد بن عَلِيّ بن الْحُسَيْن بن عَلِيّ بن أَبُو طَالب أَبُو الْحسن الرِّضَا بن الكاظم بن الصَّادق بن الباقر بن زين العابدين أُمّه أُمّ ولد نوبيَّة؛ أُمُّها سُكينة تُكنَّى أُمَّ الْبَنِينَ؛ ولد بِمَدِينَة النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم سنة ثمانٍ وَأَرْبَعين وَمِائَة وَتُوفِّي بطوس[٣] فِي سَنَاباذ[٤] وَهُوَ ابْن تسع وَأَرْبَعين سنة وَستَّة أشهر سنة ثَلَاث وَمِائَتَيْنِ لتسْع بَقِينَ من شهر رَمَضَان... وهو أحد الأئمَّة الاثني عشر"كان سيد بني هاشم في زمانه"[٥].

ويصرِّح ابن حبان بأن الرضا "من سَادَات أهل الْبَيْت وعقلائهم وَجُلَّة الهاشميين ونبلائهم"[٦].

ويذكره الشيخ النبهاني في جامع كرامات الأولياء فيصفه بأنه: "أحد أكابر الأئمة ومصابيح الأمَّة من أهل بيت النبوة ومعادن العلم والعرفان والكرم والفتوّة؛ كان عظيم القدر مشهور الذكر وله كرامات منها أنه أخبر أنه يأكل عنبا ورمَّانا فيموت، فكان كذلك"[٧].

من الواضح أن للرضا مكانة كبيرة عند كل من ترجم له، فهو علاوة على مكانته الثقافية والعلمية والدينية ينتسب إلى العترة النبوية، بل هو أحد الأئمة الاثني عشر الذين كان لهم تقدير كبير في المجتمع بسبب الخصائص التي تميزوا بها عن كل من عاصرهم من العلماء والفقهاء والعظماء؛ فكيف إذا وصل الأمر بالمأمون الخليفة العباسي الذي كان على قدر كبير من العلم والمعرفة "يخضع له، ويتغالى فيه، حتَّى إنه جعله وليَّ عهده من بعده، وكتب إلى الآفاق بذلك"[٨] بحسب ما صرَّح الصفدي وغيره من المؤرخين.

بغض النظر عن الدوافع التي حملت المأمون على اختيار الرضا لولاية العهد، إلا أن الفرادة التي تمتع بها جعلته؛ بلا شك؛ موضع اهتمام الناس جميعهم، حتى وصل مبلغ هذا الاهتمام إلى أركان الدولة وأعلى هيئة قيادية سياسية، ولعل مرد ذلك هو التأثير الكبير الذي كان للرضا في نفوس الناس جميعهم منذ أن "كان يفتي بمسجد النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن نيِّفٍ وعشرين سنة"[٩]؛ ومن المعلوم أن مسجد النبي هو مستقر المؤتمرات الدينية التي لا تنقطع على مدار العام، حيث يقصده الحاج والمعتمر للزيارة بعد أداء

المناسك والشعائر المقدسة؛ وبما أن الرضا كان يفتي الناس، فهذا يعني أن زائري الحرمين من علماء وفقهاء ومحدثين وزهاد كانوا يعرفونه ويتعلمون منه من قبل أن يعهد إليه المأمون بولاية العهد.

ويذكره ابن الجوزي مثنيا عليه بعبارات يقول فيها: "وكان علي الرِّضا - كما سُمِّي - رضًا، جوادًا، زاهدًا، عابدًا، مُعرِضًا عن الدنيا، ولولا خوفُه من المأمون ما أجاب إلى ولاية العهد"[١٠]؛ وفي هذا الثناء والتعظيم تأكيد من قِبَل سِبط ابن الجوزي على أن الرضا لم يكن ممن يطلبون الرياسة والملك وكل ما يعدُّه العلماء من صفات أهل الدنيا الدالة على عدم وثاقتهم، لذا فإن استجابته لطلب المأمون كانت استجابة قسريَّة لا يدَ له فيها ولا مطمع.

ومع أنه أجاب المأمون إلى مطلبه - وهو يعلم أنه لن يتم - فقد خاف بنو العباس على الملك من الانتقال إلى غيرهم "فلما رأوا أن الخلافة قد خرجت إلى أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه سقوا علي بن موسى فتوفِّي بقريةٍ من قرى طوسَ يقال لها: سَنَاباذ في رمضان. (أي: سنة ثلاث ومائتين)"[١١].

وإن اختلف الرواة فيمن سمَّه فإن الأصابع تشير إلى المأمون الذي خاف من ثورة أقربائه عليه بسبب إسناده ولاية العهد إلى رجل من غيرهم، ولهذا قال الصفدي: "وَآل أمره مَعَ الْمَأْمُون إِلَى أَن سمّه فِي رُمّانة على مَا قيل مداراةً لبني الْعَبَّاس...، ثمَّ أرسل إِلَيْهِ الْمَأْمُون وَقَالَ مَا توصيني بِهِ فَقَالَ للرسول قل لَهُ يوصيك أَن لَا تعطيَ أحدا مَا تندم عَلَيْهِ"[١٢]

وصرح ابن حبان بأنه مات "من شربة سقَاهُ إِيَّاهَا الْمَأْمُون فَمَاتَ من سَاعَته وَذَلِكَ فِي يَوْم السبت آخر يَوْم سنة ثَلَاث وَمِائَتَيْنِ"[١٣].

لقد تلقت الأمة علوم الرضا وفقهه وحكمته تلقي الأستاذ البارع المتفنن العالم الذي يحيط بعلوم عصره وثقافة من سبقه، مع الإحاطة التامة بمقولات أهل الديانات ومعارفهم وتقويم كل خطأ يعتقده مخالفه بأسلوب ملفت للنظر؛ خصوصا وأنه أحد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد أتباعه إمامته وعصمته... وهنا يجدر بالباحث المنصف الإشارة إلى أن اعتقاد الإمامية، بل أئمتهم لم يكونوا مرفوضين في المجتمع، وإنما كانت لهم المكانة المرموقة التي يحتلها أئمتهم في قلوب كل الناس؛ ما يؤكد على انخراطهم في المجتمع انخراطا علميا دينيا

روائيا فقهيا أدبيا... وهذا الانخراط لم يكن له نظير، إذ كانوا في مقدمة الركب رغم حملات الاضطهاد التي طالما مورست عليهم.

وقد استطاع الرضا بأسلوبه وحكمته أن يوجه الأمة إلى الإسلام العملي النقي من الشوائب، حيث قام بعملية تصحيح شاملة لو قُدِّر له أن يُتمَّها لزالت الفوارق والنزاعات والخلافات الدينية التي كانت السلطات الحاكمة تستثمرها وتستفيد منها في ضرب وحدة الأمة التي متى استقامت وتوحدت على منهاج رائد حققت الهدف الأسمى من وجودها، وهذا ما يفسر لنا تدفق العلماء على بابه ورجاؤهم السماع عنه وتلقي العلوم على يديه حيث حل وارتحل في صورة لم تجتمع لغيره.

يحدث أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ عن أَبِي الصَّلْتِ عَبْد السَّلَامِ بْنِ صَالِحٍ الْهَرَوِيِّ، قَالَ:" كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا وَدَخَلَ نَيْسَابُورَ رَاكِبًا بَغْلَةً شَهْبَاءَ، فَعَدَا فِي طَلَبِهِ عُلَمَاءُ الْبَلَدِ، فَتَعَلَّقُوا بِلِجَامِهِ فِي الْمِرْبَعِ، فَقَالُوا: بِحَقِّ آبَائِكَ الطَّاهِرِينَ، حَدِّثْنَا بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِيكَ. قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي الْعَدْلُ الصَّالِحُ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ مُوسَى: حَدَّثَنِي أَبِي الصَّادِقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنِي أَبِي أَبُو جَعْفَرٍ بَاقِرُ الْعِلْمِ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ سَيِّدُ الْعَابِدِينَ، حَدَّثَنِي أَبِي سَيِّدُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنِي أَبِي سَيِّدُ الْعَرَبِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: ((مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ))[١٤].

إنه اجتماع لا نظير من علماء البلد، وإقبال خطير على شخصية يظهر بوضوح أنها كانت تمثل المرجعية الفريدة لكل المسلمين على اختلاف مشاربهم في العالم الإسلامي، ولأن هذه المرجعية كانت تمتلك كل المقومات العلمية والمقامات الكمالية والقيادة السياسية القادرة على تحقيق العدالة الاجتماعية تحقيقا يرضي كل الناس متى امتلكت السلطة الحقيقية، لذا فقد شكلت مرجعيته تهديدا للخليفة وأقربائه ولأتباعه المنتفعين من السلطة المتاجرين بالشعارات الدينية، وهذا ما يفسر لنا بوضوح السبب الكامن وراء اغتياله.

إن المتتبع لدخول الرضا إلى نيسابور يتحقق من تلك المكانة العظيمة والمرجعية العظمى المتألقة التي ارتضاها كل العلماء المقدَّرين المعتبَرين على ساحة العالم الإسلامي؛ يقول المؤرخون: "لَمَّا دَخَلَ إِلَى نَيْسَابُورَ فِي السَّفْرَةِ الَّتِي خُصَّ فِيهَا بِفَضِيلَةِ الشَّهَادَةِ كَانَ فِي قُبَّةٍ

مَستُورَةَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ، فَعَرَضَ لَهُ الإِمَامَانِ الْحَافِظَانِ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ الطُّوسِيُّ، وَمَعَهُمَا خَلائِقُ لا يُحْصَوْنَ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ، وَأَهْلِ الرِّوَايَةِ، فَقَالا لَهُ: أَيُّهَا السَّيِّدُ الْجَلِيلُ ابْنُ السَّادَةِ الأَئِمَّةِ، بِحَقِّ آبَائِكَ الأَطْهَرِينَ وَأَسْلافِكَ الأَكْرَمِينَ إِلا مَا أَرَيْتَنَا وَجْهَكَ الْمَيْمُونَ وَرَوَيْتَ لَنَا حَدِيثًا عَنْ آبَائِكَ، عَنْ جَدِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَذْكُرُكَ.

فَاسْتَوْقَفَ الْبَغْلَةَ وَأَمَرَ غِلْمَانَهُ بِكَشْفِ الْمَظَلَّةِ عَنِ الْقُبَّةِ وَأَقَرَّ عُيُونَ تِلْكَ الْخَلائِقِ بِطَلْعَتِهِ الْمُبَارَكَةِ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ قِيَامٌ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَهُمْ مَا بَيْنَ صَارِخٍ، وَبَاكٍ، وَمُتَمَرِّغٍ فِي التُّرَابِ، وَمُقَبِّلٍ لِحَافِرِ بَغْلَتِهِ، وَعَلا الضَّجِيجُ، فَصَاحَتِ الأَئِمَّةُ الْفُقَهَاءُ، وَالْعُلَمَاءُ: مَعَاشِرَ النَّاسِ، اسْمَعُوا وَعُوا، وَأَنْصِتُوا لِسَمْعِ مَا يَنْفَعُكُمْ، وَلا تُؤْذُونَا بِكَثْرَةِ صُرَاخِكُمْ وَبُكَائِكُمْ - وَكَانَ الْمُسْتَمْلِي أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ، وَمُحَمَّدٌ الطُّوسِيُّ - قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضِيُّ: حَدَّثَنِي أَبِي مُوسَى الْكَاظِمُ، عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ، عَنْ أَبِيهِ الْبَاقِرِ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ، الشَّهِيدِ بِكَرْبَلاءَ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، أَنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنِي حَبِيبِي وَقُرَّةُ عَيْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: حَدَّثَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام، قَالَ: سَمِعْتُ حَضْرَةَ رَبِّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يَقُولُ: كَلِمَةُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ حِصْنِي، فَمَنْ قَالَهَا دَخَلَ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي"؛ ثُمَّ أَرْخَى السِّتْرَ عَلَى الْقُبَّةِ وَسَارَ، فَعُدَّ أَهْلُ الْمَحَابِرِ وَالدَّوِيِّ الَّذِينَ كَانُوا يَكْتُبُونَ فَأَنَافُوا عَلَى عِشْرِينَ أَلْفًا[١٥].

هذه الحادثة تقدم لنا صورة واضحة عن طبيعة المركزية المرجعية التي مثَّلها الرضا، والتي استطاع من خلاله أن يرد اعتبار آبائه الذين ظلمتهم الحكومات المتتابعة وحاربتهم وسجنتهم وقتلتهم خوفا على ملك لم يكونوا طامعين فيه، ولعل مجرد رواية الأحاديث بسنده عن آبائه إلى جده رسول الله لهو البرهان الأعظم على أن مرجعيته مستمدة من مرجعية جده كآبائه تماما.

والمتأمل في هذه الحادثة ليعجب من اعتقاد الناس بالرضا وطمعهم بالنظر إليه ومحبتهم له وتعلقهم به تعلق من رأى النبي في هيبته ووقاره وعلمه وتواضعه وتلألؤ طلعته وأنواره السنية؛ والأعجب من كل ذلك أن أحوال الناس كانت تتغير لمجرد رؤية وجه الرضا المبارك.

فماذا يعني أن يخرج العلماء عن بكرة أبيهم وتخرج كل الخلائق لاستقباله والنظر إلى

طلعته البهية، ثم عندما يكشف عن الستر إذا بالجموع تهتف صارخة باكية متمسكة بلجام بغلته، مقبِّلة حافرها، طالبة البركة من الله إذ جاد عليهم بمروره عليهم والنزول في بلدهم؟ بماذا شعر أولئك الناس وماذا كان بعني لهم اسم علي بن موسى الرضا؟ وكيف كانوا يتلقون رسائله ونظراته لهم وعطفه عليهم.

ثم ماذا يعني أن يزيد الكتبة الذين كانوا متأهبين ينتظرون سماع الرضا ليدوِّنوا ما يسمعونه من فمه الطاهر على عشرين ألفا؟

حقا إنه لمشهد مهيب يحتاج إلى تحليل عميق للمكانة الرائدة التي تمتع بها الإمام مع كامل تواضعه للناس، وإحسانه إليهم، وبثِّه علومَه ومعارفَه فيهم، وحلِّ المشكلات والمعضلات التي تعترضهم، والرد على الإشكالات والشبهات التي طالما أُثيرت في أيامه فكان لها بالمرصاد وعيا وحكمة ودليلا وبرهانا.

أما قبول الناس بواقع مرجعيته قبولا مفعما بكل معاني الرضا والحب مع كامل التعظيم والتقدير، فهو الدليل القاطع على أن الرضا وآباءه قبله كانوا المرجع والملاذ للأمة جمعاء، ولولا أن السياسة حاربت تلكم المرجعية وحجبتها وقمعتها وحالت بينها وبين الناس لئلا يستقيم المجتمع على سياسة الحق والعدل التي تهدد كيان المتجبرين وعروشهم، لما اختلف الناس جميعا على مرجعية آبائه المطلقة كما لم يختلفوا على مرجعيته التي تلقوها بكامل التسليم والمحبة والتوقير.

ولقد كان لعلماء الصوفية نصيب من علوم الرضا ومعارفه، إذ ينسب إلى معروف الكرخي(١٦) أخذُه عن الرضا(١٧)، وقيامُه على خدمته؛ قَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ(١٨): اتَّصَلَ هَذَا الْحَدِيثُ بِبَعْضِ أُمَرَاءِ السَّامَانِيَّةِ، فَكَتَبَه بِالذَّهَبِ، وَأَوْصَى أَنْ يُدْفَنَ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَرُئِيَ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِه، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: غَفَرَ لِي بِتَلَفُّظِي بِـ "لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ"، وَتَصْدِيقِي بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١٩)؛ ومعلوم أن المتصوفة يتابعون الأحوال فضلا عن الأعمال، وما رواية هذه الحادثة من عالم متفنن من أقطاب العلم والتصوف إلا مزيد من التأكيد على أن مرجعية الرضا قد تلقتها الأمة بكل حركاتها ومذاهبها الفكرية إذ كان له تأثير كبير في كل من قابلوه وسمعوا منه أو عنه، حتى إنهم كانوا يعتبرون التقرب من حضرته فضيلة ومزية كبرى.

لكن التقدير والتعظيم الذي حظي به الرضا حيا لم ينقطع حتى بعد انتقاله، ولطالما كان مقصد العلماء والعارفين الذين ينتمون إلى تيارات فكرية عديدة ومذاهب مختلفة إذ يتبركون عند قبره معتقدين به اعتقادا كبيرا، فهذا ابن حبان يصرِّح بما يعتقده بعلي الرضا فيقول: "وقبره بسنا باذ خَارج النوقان مَشْهُور يزار بِجنب قبر الرشيد قد زرته مرَارًا كَثِيرَة **وَمَا حلت بِي شدَّة فِي وَقت مقَامي بطوس فزرت قبر عَليّ بن مُوسَى الرِّضَا صلوَات الله على جده وَعَلِيه ودعوت الله إِزَالَتهَا عَنى إِلَّا أستجيب لي وزالت عَنى تِلْكَ الشدَّة وَهَذَا شَيْء جربته مرَارًا فَوَجَدته كَذَلِك** أماتنا الله على محبَّة المصطفي وَأهل بَيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم أَجْمَعِينَ"[٢٠].

بهذا الاعتقاد كان العالم الحافظ للسنة، المعلِّم المحدِّث يتوجَّه إلى قبر علي الرضا ليدعو الدعاء الذي لا يُرد، والذي تنحل ببركاته العقد وتنفرج الهموم.

ويترجم له ابن حجر فيورد أمرا عجبا "عن أبي بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر بن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشائخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضي بطوس، قال: فرأيت من تعظيمه - يعني: ابن خزيمة - لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تَحيَّرنا"[٢١].

بهذه الطريقة كان الناس كبارا وصغارا، علماء ومحدثين وفقهاء وقادة ووزراء وسلاطين يقفون عند قبر الرضا معظِّمين متهيبين موقِّرين مقدِّرين معتقدين أنه روضة مباركة لا يمكن أن يقف عندها سائل فيخيب دعاؤه؛ وبهذا الاعتقاد المجمَع عليه عند العلماء إجماعا ضمنيا لا يمكن أن يداخلَ الباحثَ شكٌّ بأن الإمام الرضا كان إلى جانب كونه علما استثنائيا ووارثا محمديا وإماما يعتقد بعصمته فئة كبيرة من المسلمين، فإنه كان مرجعا لا يختلف على مكانته وقيادته الدينية والروحية أبناء الأمة بعلمائها ووجهائها وفقهائها ومحدِّثيها ومفكِّريها وأئمَّتها.

القسم الأول:

مرجعية الرضا في الأوساط التي تقلده.

إذا كان الإمام الرضا هو الإمام الثامن من أئمة آل البيت المعصومين المنصوص على إمامتهم عند الإماميَّة وغيرِهم من أئمَّة التصوُّف والعِرفان، وهو عندهم حجة ينوب عن

النبي في تصحيح المفاهيم وتبيان الأحكام وشرح القرآن وتفصيل القضايا وإيضاح الشرائع... من هذا المنطلق فإنَّ اتِّباعه عندهم واجب عقلا وشرعا؛ وعلى هذا الأساس كانوا يتلقون أقواله ومواعظه وخطبه وتوجيهاته وتعاليمه؛ أمَّا الرضا فلم يكن ليكتفي بمجرد التوجيه، وإنما كان يقدم البراهين والأدلة ويدرب الأتباع على إعمال العقل الذي هو مناط التكليف وفهم الأحكام؛ وهذا ما جعل ارتباط مقلِّديه بشخصه وعلمه يقوى وينتشر ويَعُمُّ ويؤصِّل لمنهج مرجعي يتعدى كل الحدود الفكرية والمكانية والزمانية، إنه ذلك الارتباط الوثيق الذي طالما حمل الأتباع على استشارته وسؤاله عن كل ما أشكل عليهم موقنين بعلومه وبأخلاقه وبآرائه، واثقين معتقدينَ صوابيَةَ كلامه وفتاواه بل عصمتَه عن الوقوع في منزلقات الخطأ والضياع؛ وفيما يلي أعرض نماذج توضح المقصود من هذا المعنى.

أدنى مراتب المعرفة التي يجب على الأتباع معرفتها:

- عن الفتح بن يزيد[٢٢] قال: سألته عن أدنى المعرفة فقال: **"الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظيرَ، وأنه قديم مثبَت موجود غيرُ فقيد، وأنّه ليس كمثله شئ"**[٢٣].

يتميز الإمام الرضا بقوة الحجة واختصار المعارف وتسهيل العلوم على الطالبين، والتوسع والشرح والتفصيل حيث تدعو الحاجة إلى ذلك، ففي سؤال الفتح بن يزيد عن المعرفة جاءت الإجابة بأربع جمل على قدر سؤال السائل؛ وهي في الوقت نفسه شافية كافية تغطي الحاجة المعرفية لكل سائل أو طالب علم، فالسائل البسيط يفهم المقصد من دون تعمق أو توسع فيحصل على المعرفة المطلوبة بحسب ما يستوعب، والسائل العالم يقف عند معان عميقة تحتاج إلى تأمل طويل لأنه سيجد لكل كلمة أبعادا وأبعادا تتطلب من السائل والسامع أو القارئ الغوصَ في أبعادها إذا أراد العكوفَ عليها وشرحَها وتبيان معانيها واستجلاءَ خفاياها.

لقد سأله السائل عن المعرفة، فحدَّها الإمام تحديدًا مختصراً يلخِّص علم الإلهيات تلخيصا يفهمه المبتدئون ويقفُ عندَ أغواره العلماءُ بَلْهَ العارفون.

يجيب الرضا عن هذا السؤال بادئا بأدنى ما يجب على الإنسان معرفته ألا وهو الرب الخالق، وفي هذه الإجابة على بساطتها توجيه إلى الانطلاقة التي يجب أن ينطلق الإنسان منها في رحاب المعرفة والاستكشاف لكي يتخلق بأخلاق الرب والتي تتجلى في أقرب

تجلياتها من خلال الإحسان الدائم الذي يتحف الخالق به عباده من دون تمييز بين مؤمن وغير مؤمن؛ فمتى عرف الإنسان هذا الخالق الكريم عرف كيف يتعامل مع عباده بكرم وبمحبة وبعطاء من دون تمييز بين إنسان وإنسان آخر.

إن المعرفة بالله توجّه العبدَ إلى الإيمان بوحدانية الخالق وبقدرته المطلقة، وبذلك يعرف المخلوق قدرته وضعفه ليتعامل مع الآخرين على أُسٍّ الإنسانية الجامعة، إذ الذي لا نظير له ولا شبيه له هو الله، أما العباد فكلهم متساوون في الخلق والتكليف.

وعندما يكون الإيمان بالرب إيمان اعتقاد وشهود فإن الإنسان سيراقب نفسه مراقبة الموقن من أنَّ الربَّ مطلع على سرّه وعلانيته اطلاع خبير عالم لا تخفى عليه الخفيات لأنه قدير ليس كمثله شيء.

كيف يتعرف الأتباع عقلا على حدوث العالم

- سأله رجل عن الدليل على حدوث العالم فقال: **"أنت لم تكن ثمّ كنت، وقد علمت أنّك لم تكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلُك"**(٢٤).

إن سرعة بديهة الإمام وطريقة استيعابه العقول والفهوم المتفاوتة جعلته بكليمات معدودات يجيب عن أعقد المسائل التي أحوجت المجيبين من أرباب الفلسفة والمتكلمين إلى تحليلات عقلية وفلسفية لا تزيد السائل العاديَّ إلا ضياعا؛ والمتأمل في هذه الإجابة النابعة من صميم الوجود الإنساني والنفس البشرية يعجب من طريقة العرض التي كان يتلقاها السائل بإيجابية كبيرة، لا بل إنه لا يسأل بعدها سؤالا يوضح المقصود الذي بات أكثر من واضح، ذلك أن الإمام كان يتنزل في خطابه تنزل الخبير بالناس وبمعادنهم وبمستوياتهم الفكرية، وهو بهذه الخبرة كان قادرا على الإقناع مع ما ينضاف إلى تلك المزايا من قبول لدى المتلقين الذين تُحدث كلماته في نفوسهم تأثيرا كبيرا يتغلغل في أعماق النفوس مع عمقه وعقلانيته.

إن قضية الخلق وحدوث العالم وغير ذلك من القضايا الفلسفية كانت من القضايا المطروقة بكثرة في العصر العباسي، ولطالما أحدثت هذه القضايا فتنا راح ضحيتَها الكثيرُ من العلماء الذين لم يتبنّوا رأي مذهب السلطة في الأمور العقيدية، فها هو السائل يسأل عن العالم وحدوثه إذ إنه يعرف رأي الإمام في ذلك، لكنه أراد إجابة مقنعة تشفي غليله وتلبي

حاجته وتكون سلاحه في وجه الشبهات، فما كان من الإمام إلا أن أعطاه أسهل إجابة، مراعيا قدراته ومستواه، مختارا أقصر طريق إلى عقله، وأبسط طريقة من الممكن أن تكون له الدواء الناجع.

هنا انطلق الإمام من السائل في بدء الإجابة، إذ الدليل هو الإنسانُ ووجودُه ونفسُه وروحه التي بين جنبيه، فهو لم يكن شيئا ثم كان خلقا سويا؛ وبالبديهة يعرف ذلك كلُ موجود، كما يعلم بالبديهةِ أنه لم يصنعْ نفسَه ولم يكوِّنها، بل يعلم بالضرورة أن إنسانا مثله لا يقدر على أن يسوِّيَ خلقا مثله؛ فالدليل هو السائل، وهذا الدليل العملي لا يمكن أن ينساه المتلقي لأنه سيظل مستقرا في عقله استقرار إيمان لا يتزحزح ولا يتزعزع.

بناء المجتمع والإنسان من خلال المفاهيم الدينية وأبعادها:

- عَنِ اَلْحَسَنِ بْنِ اَلْجَهْمِ[٢٥] قَالَ: سَأَلْتُ اَلرِّضَا عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَا حَدُّ اَلتَّوَكُّلِ؟

فَقَالَ لِي: **"أَنْ لاَ تَخَافَ مَعَ اَللَّهِ أَحَداً"**.

قَالَ: قُلْتُ: فَمَا حَدُّ اَلتَّوَاضُعِ؟

قَالَ: **"أَنْ تُعْطِيَ اَلنَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ مَا تُحِبُّ أَنْ يُعْطُوكَ مِثْلَهُ"**.

قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِداكَ، أشتهي أنْ أعلمَ كيفَ أنا عِنْدَكَ.

قال: **"انظرْ كيفَ أنا عِنْدَكَ"**[٢٦].

هذه الرواية تقدم لنا نموذجا عن العالم المربي المتفنن المتبحر في شتى العلوم والفنون، فهو لا يحمل الفكر الديني حملا منعزلا عن الواقع والحياة، وإنما الدين عنده رسالة إصلاح للنفس وللأفراد وللمجتمعات الإنسانية، وما على المعتقد بعلومه الواثق بمنهجه إلا أن يسلك طريقه الذي يخطه بانفتاح كبير على الوجود والموجودات، فمن عرف الموجود تأهَّب للتعامل مع كل ما صدر عنه بمحبة تحجب مظاهر الأنانية والفردية والانعزالية والتعصب.

لقد جاءه الحسن بن الجهم أحد خلص أصحابه يسأله عن التوكل الذي يفسره الناس تفسيرات متباينة، ويستغله البعض ليستكين متواكلا، ويصرفه آخرون إلى تحليلات فلسفية

جميلة لكنها لا تخدم السائل والمجتمع؛ أما الإمام فوقف عند ما ينتفع منه سائله مرشدا إلى معنى لا يتوقعه ولا يظن الإمام سينطق به، إذ إنه أعطى إجابة جامعة مانعة تصلح في كل موطن، ولا تقتصر فقط على المعنى الاعتقادي الذي يمكن أن يتبادر إلى الأذهان.

فإذا كان أهل اللغة يفسرون التوكل على أنه "إِظْهَارُ الْعَجْزِ فِي الْأَمْرِ وَالِاعْتِمَادُ عَلَى غَيْرِكَ" – ومنه التوكل على الله بمعنى الاعتماد على الله – فإن الإمام يرى التوكل أرفع درجاتٍ مما يتخيَّله المتخيِّلون، إذ التوكل **"أَنْ لاَ تَخَافَ مَعَ اَللَّهِ أَحَداً"**(٢٧).

هذا الاعتقاد لا يقتصر على الاعتماد في جانب من جوانب الحياة المادية المتعلقة بالرزق، وإنما ينسحب على كل مفاصل الحياة، فالمتوكل في معاشه لا يخاف فوات رزقه، فلا يسرق ولا يغش ولا يخادع ولا يأكل مال الآخرين بالباطل والعدوان؛ والمتوكل المؤمن بالحق وبالعدالة لا يخاف بطش ظالم، فلا يقف مع مجرم ولا يدافع عن معتدٍ ولا ينصر متجبِّرا، ولا يساند مستكبرا؛ والمتوكل الذي يريد الإصلاح لا يستسلم لفساد السلطات وجورها، ولا يأبه لتدابيرها وقمعها، ولا يستسلم لأهل الجهل والفساد...

التوكل في نظر الإمام "الملقي" وفي اعتقاده مدرسة إصلاح شامل، وليس إصلاحا فرديا على صعيد الإيمان والاعتقاد الشخصي؛ ومن هذا المنطلق صيَّر الإمام الفكر والعقيدة والفقه والشريعة في مناحيها عبر الأزمنة والأمكنة مرنة مع ما يخدم الإنسان دينا وفكرا واجتماعا وإنسانية ووجودا؛ وهذا ما لا يتوقعه السائلون، وهو الذي يفسِّر لنا سكوت السائل عن إتباع سؤاله حول الأمر المحدَّد بإشكالية قد أشكلت عليه، حيث ينطلق إلى سؤال آخر بعد أن جاءت الإجابة صادمة غير متوقَّعَة قد حلت محل الاعتقاد الذي لا يُتَرْجَمُ بغير العمل؛ وهذه الإجابات الصادمة هي التي كانت تفتح للسائل آفاقا جديدة لطرح إشكالات عالقة في ذهنه لها علاقه بمسائل أخرى علَّهُ يقع على ما يشفي الغليل ويمتع العقل بعبارات قليله هي الروعة اختصارا وعمقا وبيانا.

وإذا انتقلنا إلى السؤال الثاني الذي طرحه الحسن على الإمام حيث طلب تبيان حد التواضع وتعريفا واضحا له ليكون له معلَما ونبراسا في الوجود، وجدنا الإمام الرضا يقدِّم طرحا بعيدا عن المعاني المتداولة المحفوظة حفظا نظريًا لا تطبيق معها ولا بيان خُلُقيًّا يفسرها ويوضّحها، بل جاء تفسيره عميقا عمق العارف بأبعاد النفوس البشرية والأسرار الكامنة

فيها، فالتواضع ليس سوى **"أَنْ تُعْطِيَ اَلنَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ مَا تُحِبُّ أَنْ يُعْطُوكَ مِثْلَهُ"**

فإذا كان أهل اللغة يرون التواضع من الجذر "وضع" حيث "الْوَاوُ وَالضَّادُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ"[٢٨]، أو أنه بمعنى التذلل[٢٩]، فإن الرضا يتخطى حدود وقيود المعاني اللفظية ليذهب إلى ما بعد الألفاظ الظاهرة، وعليه فإن التواضع أبعد من التذلل، إذ هو عبارة عن رغبة عارمة تدفع الإنسان لمعاملة الآخرين بمثل ما يحب أن يعاملوه، وإعطائهم مثلَ ما يحب أن يُعطوه، فهو باختصار شديد ضد كل صنوف التعالي والتكبر والتعامل المبني على الأثرة والابتزاز والظلم والاستهانة بالآخر واحتقاره.

من الواضح أن كل سؤال كان يطرحُه الأتباع على الإمام إنما كان يحظى بعناية بالغة حيث البساطة في البيان والعمق في الأبعاد والوضوح في المقاصد. فالرضا يتلقى سؤال السائل وطبيعة تفكيره ومستواه، ثم يتناوله من جوانب غير منظورة ولا متوقعة، وطالما وجدنا إجاباته نابعة من صميم الدين القائم على حب الإنسان واحترامه وتقديره، وليس على أساس من التعصب والإلغاء والتحقير وعدم الاحترام؛ وبهذه المفاهيم كان يرسي قواعد الأمن الاجتماعي والثقافي الذي يصنع الحضارة ويبني الأمم.

ويطرح الحسن بن الجهم سؤاله الثالث الدال على مدى إعجابه وتقديره لفكر الرضا واعتزازه بمنهجه، ومحبته لشخصه؛ هذا الحب العارم حمله على الاستفسار عن مكانته عند الإمام، فهل هو من المحبوبين المقدَّرين المحترمين عنده، أم هو كأي عابر يمر في حياة الإمام؟

هذا السؤال على قصره وقلة مفرداته ينم عن حب تلميذ لا يُقدّر لأستاذه وقدوته وإمامه، حتى ليخيَّل للقارئ أن نبضات قلبه تتحرك بمودة الإمام طالبة الإجابة التي تؤكِّد على أنَّ القلبَ الطاهر يبادلُه المشاعرَ نفسَها.

والذي لم يكن ليتوقعه الحسن أن تأتي إجابة الإمام دالة على كبير تقديره له واحترامه لشخصه ولصدقه ولإخلاصه، لكن بطريقة أيضا مخالفة لتوقعاته، إذ كان ينتظر من الرضا أن يجيبه بكلمات ثناء وتقدير تعبر عن مبادلته ذلك الحب والإخلاص؛ لكن أفق التوقعات الذي يفتحه الرضا دوما نجده مفاجئا للسائلين الذين يندهشون بما لم يحسبوا له حسابا، فكلمات الثناء قليلة أمام التعبير عن تقدير المخلصين المستمسكين بالمنهاج القويم الطالبين لحقيقة العلوم؛ فالرجل يتحرق ليفدي الرضا بروحه راجيًا معرفةَ مكانته في قلب إمامه: **"جُعِلْتُ**

فِداكَ، أشْتَهِي أنْ أعْلَمَ كَيْفَ أنَا عِنْدَكَ؟

فيبادله الإمام أحاسيسه بالمثل، لا يقبل انتقاص مشاعره بالترفُّع أو التعاظم عليه ولو بمثقال ذرة، ولا يرضى بالمجاملات الفارغة التي لا قيمة حقيقية لها، قائلا: "**اُنْظُرْ كَيْفَ أنَا عِنْدَكَ**"؛ ما يعني أن الإمام لا يقبل بغير العدالة حتى في محبة الآخرين واحترامهم وتقديرهم له، فلا يمكن أن يكونوا محبين له وهو هازئ بهم، مستغل لقدراتهم، مسخر قواهم في سبيل تعاظمه عليهم؛ إنه ليؤكد لهم أنه واحد منهم مع ما يرون له من مكانة علمية وثقافية واجتماعية ومرجعية دينية لا تضاهى؛ ومع هذه المكانة جاءت إجاباته عملية قبل أن تكون نظريات جوفاء لا حقيقة لوجودها على أرض الواقع، فهو يبيِّن للحسن بطريقة واضحة أن القلوب شواهد، ليقول له إنَّ مكانتك عندي هي مكانتي عندك، وإن قلبك النابض بحب إمامك واحترامه، يجعل قلب إمامك ينبض بحبك واحترامك؛ وهكذا جاء درس التواضع العملي الذي يتعلمه المتلقي عمليا في جلسة واحدة مع إمامه.

إنه الرجل المرجع المحب المتواضع الحكيم المتميز الموهوبَ كلَّ الإمكانات العلمية والثقافية والإصلاحية العملانية من خلال التوجيهات الدينية التي يسأله عنها السائلون فتتجلى في أخلاقه من قبل أن تسمعها آذانهم، وتعيها قلوبُهم من قبل أن تعقلَها عقولهم؛ وبهذه القدرة على خرق كل التوقعات تمكَّن الرضا من فتح مغاليق قلوب الناس إذ وجدوه مثال العامل بما يَعْلَمُ وبما يُعَلِّم.

القسم الثاني:

أفق التوقعات الصادمة لدى سؤال غير المقلدين تثبت مرجعية الإمام

درجت العادة أن يتصارع أهل السلطة والحكم والرياسة والقضاء... على نفوذهم، ويتحاسدوا على ما في أيدي بعضهم، ويتقاتلوا من أجل مصالهم الخاصة مستغلِّينَ الأتباع الذين ينظر إليهم كل أولئك على أنهم مجرد أرقام لا قيمة لها؛ إلا أن الدارس حياة الرضا يقع على صورة مثالية قد لا تتكرر عبر العصور، فأئمة كل فن من الفنون كانوا يستصغرون أنفسهم أمام عظمةِ الرضا وشخصيَّته الفريدة وحكمته الجليلة وحجَّته القوية وبرهانه الساطع، وأهل المعرفة وأئمة العرفان كانوا يستسلمون لمعارفه استسلاما مطلقا لا يداخله أدنى شك.

البلخي وامتحانه الإمامَ بطرح أسئلة متعلقة بمعرفة الله:

إذا نحن تأملنا في قصة البلخي[٣٠] الذي جاء يسأل الإمام عن مسألة معترفا بإمامته متى أجابه بما استقر عنده من معرفة وصل إليها بعد تحقُّق وبحث، وجدنا لغة الإمام الرضا وطريقة إجابته هي الطريقة نفسها التي أجاب بها النبي ﷺ ذلك الرجل اليهودي الذي يدعى "سُبُحْت"، والذي عاهد النبي على أن يؤمن به إن هو أجابه عن مسألته.

فالرجل البلخي سأل ثلاثة أسئلة وتلقى عليها من الإمام ثلاث إجابات، فعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: جاء رجل إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام من وراء نهر بلخ فقال: إني أسألك عن مسألة فإن أجبتني فيها بما عندي قلتُ بإمامتك.

فقال أبو الحسن عليه السلام: سلْ عما شئتَ.

فقال: أخبرني عن ربِّك متى كان؟ وكيف كان؟ وعلى أيِّ شئ كان اعتماده؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أيَّن الأين بلا أين، وكيَّف الكيف بلا كيف، وكان اعتماده على قُدرته.

فقام إليه الرجل فقبَّل رأسه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن عليا وصيُّ رسول الله ﷺ والقيِّمُ بعده بما قام به رسول الله ﷺ، وأنَّكم الأئمَّة الصادقون، وأنَّك الخلف من بعدهم[٣١].

و"سبحت" اليهودي سأل ثلاثة، أسئلة وتلقَّى عليها ثلاث إجابات لم يزده النبي عليها كلمة؛ فعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: إِنَّ يَهُودِيّاً يُقَالُ لَهُ "سبخْتُ" جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ رَبِّكَ فَإِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ وَإِلَّا رَجَعْتُ.

قَالَ: سَلْ عَمَّا شِئْتَ.

قَالَ: أَيْنَ رَبُّكَ؟

قَالَ: "هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَكَانِ الْمَحْدُودِ".

قَالَ: وَكَيْفَ هُوَ؟

قَالَ: وَكَيْفَ أَصِفُ رَبِّي بِالْكَيْفِ وَالْكَيْفُ مَخْلُوقٌ، وَاللَّهُ لَا يُوصَفُ بِخَلْقِهِ؟!

قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ يُعْلَمُ أَنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ؟

قَالَ: فَمَا بَقِيَ حَوْلَهُ حَجَرٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ إِلَّا تَكَلَّمَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ: يَا سبخْتُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ "سبخْتُ" مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ أَمْراً أَبْيَنَ مِنْ هَذَا؛ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ(٣٢).

فالبلخي سأل الإمام قائلا أخبرني عن ربك متى كان وكيف كان وعلى أي شيء كان اعتماده؟

وأجابه الإمام بأن الله تعالى أيَّن الأين ووقَّته وكيَّف الكيف وصوَّره...؛ وكذا سبحت اليهودي سأل النبي: أين ربك؟ فأجابه بأنه "فِي كُلِّ مَكَانٍ وَ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَكَانِ الْمَحْدُودِ".

فالمتأمل في كلتا الواقعتين لا يساوره أدنى شك بأن لغة النبوة وحكمة المرسَل كانت أجلى صفةٍ يتمتّعُ بها الإمام.

كيفية تلقي السائل البلخي لإجابات الإمام

أما عن السائل المتلقي لإجابات الإمام فكان يصاب بالذهول والدهشة لسماعه إجابة تختلف عن كل الإجابات التي يسمعها وينتظر سماعها من الإمام؛ وهذا مرده إلى انتشار الفِرق والمذاهب الكلامية التي تأثَّرت بعلوم الفلسفة المترجمة، ولم تستطع بداية الإفادة منها في إطار علم العقيدة بطريقة صحيحة، وهذا يعود إلى أن الناس كانوا لا يزالون حديثي عهد بتلك العلوم، وكان لا بد في مثل تلك المرحلة من مرجعية متميزة أصيلة فوق العادة تستطيع التعامل مع المستجدَّات ودحر الشبهات وتبيين المعارف الإلهية بشكل صحيح وبأسلوب متميز وبمصداقية الرسول والرسالة؛ لذا فإن السائل العالم الحصيف الذي يتوقع من الإمام إجابة كإجابة غيره من أهل العلم والمعرفة كان لا بد له من التعبير عن دهشته من سرعة بديهة الإمام وقدرته على الإجابة بأسلوب علمي عقلي حقّاني لا تختلف عليه العقول السليمة؛ وهذا هو السبب الكامن خلف اعتراف البلخي بإمامة الرضا وبإمامة آبائه وأجداده؛ وهكذا يثبت السائل مرجعية آل البيت التي عرفها في آباء الرضا ورآها فيمن خلفهم.

هوية البلخي وأساليبب الإمام النبوية في الإقناع:

ومن ناحية ثانية نجد أن البلخي الذي ورد اسمه مبهما لم يكن رجلا عاديا كما يظهر من خلال الرواية، وإنما كان على درجة عالية من الدراية والمعرفة العميقة، وهذا ما يجعلنا نعتقد شبه جازمين من وقوفنا أمام شخصية قد عرفت أئمة أهل البيت وكانت سمعت عنهم أو تعرفت إليهم، فالبلخي المذكور في الرواية أغلب الظن عند الباحث أنه شقيق بن إبراهيم البلخي العارف بالله، فأسئلته تنمّ عن مستوى إيماني معرفي عال؛ وَهُوَ عَلَم من أعلام ومشاهير مَشَايِخ خُرَاسَان؛ وقد صحب إِبْرَاهِيم بن أدهم البلخي وَأخذ عَنهُ الطَّرِيقَة، وَأسْندَ الحَدِيث(٣٣).

وإبراهيم بن أدهم مذكور في عداد أصحاب الإمام جعفر الصادق(٣٤)، كما ورد أنه التقى بالإمام علي بن الحسين(٣٥)؛ ومعروف عن المتصوفة تأثرهم بأئمة أهل البيت عليهم السلام؛ كما يعرف عنهم تجنُّبهم الخلق وحبُّ الخمول والبعد عن الشهرة ومواطن الشبهة؛ وفي هذا المعنى يقول إبراهيم بن أدهم: "كن ذنبا ولا تكن رأسا، فإن الذنب ينجو، والرأس يهلك"(٣٦).

هذا البلخي لا بد أنه من هذا النوع من الناس الذين عُرفوا بالزهد والتقوى؛ ولعله عَرف وتعرَّف على آل بيت النبوة وعلومهم وأئمتهم، فأراد التعرف على الإمام الوارث والتحقق ممَّا عرَّفه عليه أستاذه، واكتساب اللقاء بإمام عظيم ليتيقن من كونه عظيم آل البيت ووارث علوم النبوة؛ وتَوَافُقُ المعرفة التي وصل إليها البلخيُّ مع المعارف التي بيَّنها الإمام، وإن جاءت متطابقةً، لكنها كانت مخالفة لتوقعاته من خلال معرفته بعلماء أهل زمانه الذين لم يصلوا إلى المستوى الذي ينشده البلخيُّ من المعارف الحقة.

والأمر نفسه نجده حدث مع اليهودي الذي وجد الناس قد ضلوا عن سبيل المعرفة الحقَّة، فانحرفوا عن الجادة، وتفرقوا، وفسروا الدين بأهوائهم، الأمر الذي ألجأ العالِم العارف إلى اعتزال الناس بعد يأسِه من محاورته إيَّاهم بالعقل والمنطق وبعد أن صار الحق غريبا بينهم؛ ولعل هذا هو السبب الكامن خلف عدم شهرة" سبحت" الذي يبدو من خلال سؤاله أنه كان من علماء الأحبار الذين لم ينجرفوا خلف التيارات المنحرفة، ولم يغيِّروا مبادئهم، ولم يتاجروا بالدين.

إن سماع "سبحت" بخروج نبيٍّ حمله على القدوم عليه سائلا عن الله؛ و"سبحت" كان يتوقع سماع إجابة لا تختلف عن إجابات أهل زمانه من العلماء الذين يمثّلون المرجعية الدينية للمجتمعات الإنسانية في ذلك الزمان؛ ولأن "سبحت" كان شبه متيقن من أن إجابة النبي لن تختلف عن إجابات كبار الأحبار وغيرهم من أهل الديانات، فإنه عاهد النبي على الإيمان متى كانت إجاباته موافقة للحق وللمعرفة التي وصل إليها بجِدِّه وبحثه عما كان عليه أنبياء الله ورسله وعمن سيحمل هذا الفكر ويدعو الناس إليه؛ لكن الصدمة التي مُنِيَ بها "سبحت" والتي كانت على عكس توقُّعاته لم تدفعه للاستسلام، بل جعلت عنده شكًّا في إمكانية أن يكون النبي صادقا، وإذا كان نبيًّا مرسلا من عند الله فإن الكون سيكون مسخَّرا له، وإنَّ الخوارقَ ستظهرُ على يديه؛ لذا سأل: ومِن أين تعلم أنَّك نبي؟

وعندما شهد للنبي كلُّ ما حوله متكلِّما بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، اندفع "سبحت" للإيمان مقرا بأنه لم ير يوما تسطع فيه الحقيقة وتنجلي وتظهر كما ظهرت على يدي النبي.

هاتان الحادثتان شكَّلتا أُفُقًا لتوقُّعات جديدة، وجاءتا بحقائق كان يظنُّ السائلُ عنها بأنَّه لن يرى في أهل زمانه ووقته مَنْ يعرفها، لكنَّ الفرادة التي تمتع بها النبي الأعظم علما ومعرفة وبرهانا وإرشادا وتعليلا كانت الإرث الأبهر الذي سرى في الأئمة الأعلام من آل بيت النبوة الذين اعترف بصدقهم وبفضلهم كلُّ عالمٍ عارفٍ متحقق متوجِّهٍ إلى الله، معتزلٍ ما عليه الناس من انحراف وتغيير.

أمَّا لغة الإمام التي بزغت من مشكاة النبوة فقد أبهرت مَنْ سمعها، وثبَّتت إيمان المؤمنين، ووجَّهت العرفاء للالتفاف حول مرجعية تسدِّدهم وترشدهم وتكون ملاذهم وملجأهم في زمان عمَّت فيه الفوضى المعرفية التي حوَّرت المفاهيم الدينية عن قصد وعن غير قصد حتى ظهرتِ الفِرَقُ وكَفَرَ النَّاسُ بعضَهم وصاروا شِيَعًا وأحزابا.

والمدقِّقُ اللبيبُ يجدُ مرجعية الإمام قد تخطَّت كلَّ الأُطُرِ التي أقامتْ جُدُرًا صُلبة بين آل البيت وبين الناس؛ فإمامة الرضا كانت واضحة للعيان، باهرة للمبصرين والعميان، لا ينكرها أحد من أهل العقول والعرفان؛ وكذا حكمته كانت آسرة للقلوب الكسيرة الباحثة عن الحقيقة وأهلها المحققين ذوي العصمة والبرهان.

إن التحليل العقليَّ المنطقيَّ الذي يأتي معاكسا لتوقُّعات السائل بطريقة مفاجئة تَنْقُضُ الروايات الباطلة المنتشرة في الأوساط العلمية والفكرية والدينية، هذا التحليل الصادمُ والصادرُ عن إمام كان مَقْصِدًا لأهل العلم وقبلةً للعارفين والمتفننين، يعني أن هذا الإمام قد تخطى المرجعية المحدّدة بإطار معيَّن، إذ استطاع اكتساب وثاقة جميع الباحثين عن الحقيقة من غير مقلديه وأتباعه، وبذلك تربع على عرش المرجعية المطلقة الموثوقة المنبثقة من رَحِم النُّبوَّة، وهذا ما حدا بجميع سائليه على أن يحترموا عقله وعلمه ويهووا سماع رأيه ويؤمنوا بكلامه وحكمته؛ ولقد أثبتت طريقة تلقي السائلين للإمام الرضا هذه المكانة التي كانت لجدِّه رسول الله في الواقعة الشبيهة مع رجل مؤمن من علماء اليهود العارفين الذين كانوا يعلمون أن المستوى المعرفيَّ البرهانيَّ الذي جاء به النبيُّ لا يمكن أن يكون لغيره من الناس، هذا مع ما كانَ عندَهم مِنْ صفات نبيِّ آخرِ الزمانِ الذي يُتَمِّمُ مكارمَ الأخلاق، لا يفرق بين الأنبياء والمرسلين، كما أنَّه لا يفرِّقُ بينَ حرٍّ وعبد، أو بينَ غنيٍّ وفقيرٍ، أو بين إنسانٍ وإنسان، إذ الرب هو الذي أنزل عليه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

القسم الثالث:

تلقي المخالفين لآفاق عقلية وقواعد علمية جديدة تؤكد مرجعية الرضا

الكلام على رؤية الله وتوجيه معاني الآيات القرآنية والتوفيق بينها:

عن صفوان بن يحيى[٣٧] قال: سألني أبوقُرَّة المحدِّث[٣٨] أنْ أُدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتى بلغ سؤالُه إلى التوحيد؛ فقال أبوقرَّة: إنا رُوِّينا أنَّ الله قسم الرؤية والكلام بين نبيَّيْن: فقسم الكلام لموسى، ولمحمد الرؤية.

فقال أبوالحسن عليه السلام: فَمَنِ المُبَلِّغُ عنِ الله إلى الثَّقَلَينِ منَ الجِنِّ والإنس: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...﴾ (الأنعام: ١٠٣)؛ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ﴿طه: ١١٠﴾، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)؛ أليس محمدا؟

قال: بلى.

قال: كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعا فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...﴾ (الأنعام: ١٠٣)؛ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠)، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطتُ به علما، وهو على صورة البشر؟! أما تستحون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميَه بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر؟!

قال أبوقُرَّة: فإنه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (النجم: ١٣).

فقال أبوالحسن عليه السلام: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (النجم: ١٣).

يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم: ١٨)؛ فآيات الله غير الله، وقد قال الله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠)، فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة.

فقال أبوقُرَّة: فتكذب بالروايات؟ فقال أبوالحسن عليه السلام: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها؛ وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يُحاط به علما، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء؟[٣٩].

إن المدقق في هذه الرواية يقف على جملة من الميزات والمؤهلات التي كانت محل صدمة السائلين الحفظة لكتاب الله ولسنة رسوله ممَّن ينقلون الروايات ويحدِّثون بها الخلق على أنها أحاديث صحيحة، ومن هذه الروايات ما يُفسِّر كتاب الله ويوضِّح معانيه؛ ولعل أسلوب الإمام الرضا في طرح الأسئلة يدلُّ على عميق معرفته بما عليه السائل من علوم ومعارف وروايات وتحليلات وتفسيرات؛ وهو بأسئلته يوجِّهُ الحفَّاظ الذين يروون الأحاديث إلى ضرورة إعمال العقل الذي هو ميزان قبول الرواية، ولأن العقل قد يخطئ فإنَّ عرض الروايات على كتاب الله يُبَصِّر العالِم اللبيب بحقيقة المعنى.

ألم يكن الإمام قادرا على أن ينكر المقصد الشائع بين الناس، والمفاهيم الخاطئة من الرواية مستدلًّا بآية من كتاب الله، مصحِّحًا بها الخطأ المستشري؟

لا شك بأن الإمام كان يقدر على ذلك، لكنه كان يوجّه العلماء ويفتح أمام عقولهم آفاقَ توقعاتٍ جديدة ما كانوا يفكّرون بها ولا يلتفتون إليها، بل لا يتوقعونها على صعيد المعرفة الدينيةً والعقدية، وهذا الأفق حقيقةً من أعقد الآفاق التي يمكن أن يفكر الناس - علماء وعوامّ - بتغييرها وزحزحتها مهما كلفتهم من أثمان، إذ إنكار المعرفة المتوارثة بالنسبة إليهم إنكار للدين والعقيدة.

هي جملة من الأسئلة العقلية المتتابعة المتصلة بسلسلة من المفاهيم التي لا يمكن إنكارها؛ فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس؟ أليس محمدا؟

بهذا السؤال التقريري البسيط، حفَّز الإمام عقل السائل ونشَّطه وجعله يعرف قيمة عظيمة كائنة فيه هي العقل؛ هذه القيمة العقلية قادرة على التحليل والاستنتاج والقبول والرفض.

لقد انطلق الإمام في طرح أسئلته على أبي قُرَّة من أولى المسلَّمات التي لم يختلف عليها المسلمون وهي شهادة الإيمان بالله وبنبوة محمد رسول الله؛ ثم انتقل إلى مسلَّمة ثانية مفادها أن النبيَّ المرسَل من عند الله إلى الخلق لا يمكن أن يكون كلامُه مناقضا لبعضه، فلا يُعقل أن يخبرهم عن الله أنه لا تدركه الأبصار، وأن البشر لا يمكن أن يحيطوا به علما، وأنه ليس كمثله شيء، ثم يقول للناس: أنا رأيته بعيني، وأحطت به علما، وهو على صورة البشر من حيث أنَّ المَرْئِيَّ له حجمٌ وحَيِّزٌ وحَدٌّ.

ثم انتقل الإمام إلى سؤال توبيخي يحمل العاقل على التيقُّظ من غفلته وإعمال عقله وضميره "أما تستحون؟".

هذا التوبيخ أتبعه الإمام بوجوب وضرورة تنبُّه العلماء - أثناء سماعهم وكلامهم وتحديثهم - إلى ما يحدِّثون به الناس؛ إذ إنَّ مثل هذه الروايات غير الصحيحة لم تقدر طائفة الزنادقة؛ الذين اتفقت الأمَّة على مروقهم من الدين وانحرافِهم عن الجادَّة؛ أن ترمي النبي وتفتري عليه بمثل هذا الافتراء الشنيع.

القضية الأخرى التي أثارها الإمام في هذه الرواية هي قضية الخلفيات التي وُضعت لتفسير الآيات، والتي جاءت مخالفة للعقل والمنطق من قَبل أن تخالف نظام القرآن ولغته؛

ومن أجل ذلك رأيناه ينبّه أبا قُرَّة إلى عدم صحَّة المعنى الذي تبادر إلى أذهان الكثيرين من العلماء والدارسين ورواة الحديث، حيث أنبأه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (النجم: ١٣)، وقد دل على المعنى آية أخرى في السورة نفسها، وهي قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (النجم: ١٣)، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ١٨).

وهكذا أخبر بأن الفؤاد الذي لم يكذب ما رأت عيناه هو فؤاد محمد، وأنَّ المرئيَّ الذي تشرَّف النبيُّ بالنظرِ إليه هو آياتُ الله الكبرى، وآياتُ الله غيرُ الله بلا جدال ولا نزاع، ولا يمكن أن تكون هي الله، فالرب هو الذي أخبر عن استحالة ذلك إذ أخبر عن نفسه قائلا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠)، ومن ادَّعى بأنَّه رأى الله فقد أحاط به علما ووقعت له المعرفة.

قاعدة نقد الروايات المروية عن النبي ﷺ:

أما القضية المفصلية التي أثارها أبو قُرَّة بعد أن فتح الإمام أمامه أفقا عقليًا ما كان بحسبانه، فهي تلك المتعلقة بالروايات الحديثيَّة التي كان يخشى أبو قُرَّة من مناقشتِها أو ردِّها خشيةَ الوقوعِ في الضلال والمحظور؛ فكيف إذا شكَّك بها أو أنكرها؛ هذه القضية دفعته لأن يسأل الإمام: أتكذِّب بالروايات المنقولة عن النبي وتنكرها؟

فما كان من الإمام إلا أن حدَّد لأبي قُرَّة قاعدة عظيمة يجب اتباعها في قبول الروايات؛ مفاد هذه القاعدة أنَّ كل رواية تخالف كتاب الله هي غير صحيحة، وهو يكذبها لا محالة، ويصدق ما أجمع عليه المسلمون من أن الرب لا يحيط أحد من مخلوقاته به علما ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء...

ولئن جهد علماء الحديث في نقد الروايات الحديثية بناء على نقد أحوال الرجال؛ وهو ما يعرف عندهم بـ "علم الرجال"، إلا أن هذا العلم لم يَسْلَمْ من أن تُخالطه المزاجيَّاتُ والضغوطاتُ النفسيَّة والأهواءُ والتعصُّب... وكل ما من شأنه التأثير السلبيُّ على المرويَّات التي نُقلتْ عن النبيِّ ﷺ بغض النظر عن صِحَّتها وعدمه...

من هذا المنطلق نجد أن الإمام قد فتح آفاقا تجديدية في علم الحديث يجب أن تبدأ انطلاقا من النظر في متون الأحاديث قبل النظر في رواتها والكتب التي رُويت فيها والتي

قيل في بعضها؛ أصح الكتب بعد كتاب الله...

وعند الحديث عن نقد المتون الحديثية قبل رجالها فهذا يدفع بنا دفعا لأن نُعْمِلَ عقولنا في الروايات، وبهذه الطريقة نتعامل مع كل المرويات المنقولة في كتب المسلمين على حد سواء، متجنبين التأثر بمقولات وأحكام علماء الرجال على الرواة الذين لم يسلم معظمهم من النقد...

وعند الانفتاح على كل الروايات الحديثية فإننا سنكتشف بأن هذا الانفتاح سيقودنا إلى المنهج الذي أرساه النبي وعمل الأئمة من بعده على تثبيته مفاهيمه، وهو ما ورد في كتب الحديث قاطبة؛ حيث كان الأمر من النبي المعصوم بعرض النصوص على كتاب الله تعالى، فما لم يخالف الكتاب وهدي النبي ص ومنهاجه وتعاليمه فقد قاله النبي ﷺ، وإلا فإن النبي منه براء؛ ولقد وجدنا الإمام الرضا يوجه إلى حقَّانية هذا المنهج واتساعه ووضوحه ونقائه وريادته.

يوضح الإمام من خلال شرحه وتفصيله وجمعه للنصوص وإيضاح مراميها الدلالية أن التقوقع في دائرة الأحاديث المذهبية لا الإسلامية يعني تعطيل العقل؛ والإسلام دين عُنِيَ بالعقل عناية بالغة، وطالما حضَّت آيات القرآن على إعمال العقل من خلال ما يحيط بالإنسان من موجودات يدركها بواسطة السمع والبصر والتأمل والتدبر والحوارات العقلانية الهادفة...

إن المتلقي الذي يقع على ما ورد عن الإمام الرضا من شروحات ومعان تخالف ما تَعَلَّمه وتلقَّاه سيقع في دائرة إهمال قسم كبير من التراث الذي أُطلق عليه مُسَمَّيات كثيرة بغرض قمع الآخرين ومصادرة عقولهم لئلا يُفَكِّروا بطريقة تتعارض مع الصراعات السياسية التي لا تهتم لغير المصالح الخاصة على حساب العلم والمعرفة والتراث، وبذلك يؤول النص رهن المتاجرة بالحقيقة؛ وما لم ينفض العاقل عن عقله غبار التبعية العمياء والعصبية الجوفاء فإنه لن يخرج من قمقم الجهل البغيض.

بهذا الانفتاح الذي جعله الإمام المعيار السَّوِيَّ الواضح تُعرفُ الأحاديث النبويَّة الصحيحة من غيرِها بعيداً عن الأهواء والتعصُّب والمذهبيَّة والمِزاجيَّة في قبول الروايات ورفضها... لذا كان سهلا على الإمام أن يعترف بأنه يكذِّب الرواية التي خالفت صريح

القرآن ويرفضها رفضا تامًّا ولو اعترف بها معظم العلماء وعلَّموها الخلق وتناقلوها عن أسلافهم مصحِّحين إسنادها.

ومع أن الإمام شكَّل صدمة كبيرا لدى السامع، إلَّا أنه أراد الانطلاق من رحاب هذه المسألة الخلافية القائمة على فهم خاطئ للنص القرآني إلى قضيَّة محوريَّة هي التحلّي بالعقل الناقد البصير الذي تنفسح به مجالات كبيرة تتلاقح عبرها الأفكار وتتلاقى الأفهام ويتدارس العلماء في رحابها القضايا الخطيرة ليكون تراثنا الإسلامي بمذاهبه كافة مفعما بالحركة والتنوع والعقلانية، غنيا في خدمة المشروع الإسلامي الإنساني البعيد عن العصبيات الهوجاء التي لا تؤسس لغير الجهالة والظلامية وإقصاء الآخر ونحر المخالف.

إن إجابة الإمام عن أسئلة السائلين الذين كانوا يستفسرون ويستعلمون منه استعلام التلميذ من أستاذه لَتدل دلالة واضحة على أنه كان مرجعا لكل أهل الفكر والرأي والمعرفة في كل علم وفن بلا منازع، بل تؤكد على أنه كان إمام زمانه الأوحد، وقبلة كل مؤمن وموحِّد من أهل القبلة، ودليل كل دارس من أتباع الديانات قاطبة، وذلك بسبب سعة علومه التي شهد له بها صاحب دار الحكمة ومؤسسها المأمون الذي كان مولعا بالعلوم وفنونها، بل كان معدودا من العلماء الذين ألزموا خصومهم بالحجج والبراهين الدامغة.

بنظرة سريعة على سير هذه الواقعة نشهد انبهار المتلقّي أبي قُرَّة المحدِّث بشرح الإمام وتفسيره وتعليله ومعرفته بلغة القرآن معرفة فائقة، وجمعه للآيات القرآنية التي تدور في فلك معرفيٍّ موضوعيٍّ واحد وتوجيه معناها بلا تعارض أو تناقض؛ ولعل هذا الانبهار سببه أنَّ كل ما يتوقَّعُه أبو قرَّة جاء مخالفا للقواعد التي يحفظها، والأشد من ذلك أنه مرفوض عقلا ونقلا، لا بل إنَّ المعايير المنسوبة إلى النبي والتي لا يستطيع العلماء البحث فيها أصبحت محلَّ نظر وأخذٍ وردٍّ متى خالفتِ الكتابَ المنزل الذي أوجب التعقل والتدبر للوصول إلى عمق المعارف التي لا نهاية لها.

هذا الباب الذي فتحه الإمام أمام العلماء والمحدثين واحد من أعظم الأبواب التي تظهر فساد العقائد المنحرفة والمنتشرة التي تعتمد في ظاهرها على الكتاب والسنة المنقولة والمُفَسِّرَة للقرآن ولآياته؛ لكنَّ اعتماد السنة المصحَّحة مع إهمال الجانب النقدي العقلي أحدث صراعات مخيفة في المجتمعات الإسلامية، حيث عمدت الدول الحاكمة على تبنّي فكر

من بين الأفكار السائدة ودعمه وفرضه على الأمَّة الإسلامية، وإقصاء كل المخالفين له بشتى الوسائل الممكنة، وهذا الأمر تسبَّب بالجمود وصناعة العصبيات والصراعات المذهبية التي نتج عنها حروب دمرت الأوطان والإنسان باسم الله والدين.

إن هذا الباب الفسيح الذي فتحه الإمام أمام العقل يحمل أهل العلم والمعرفة والحكمة على الجرأة عند معاودة قراءة النص بروحية نقدية جديدة، واستطلاع ما يمكن أن تحمله هذه القراءة من آفاق جديدة ولو جاءت مخالفة للمتوارث التاريخي الذي ثبتت خلفياته ثبات العقيدة، ولعل الجرأة المعرفيَّة الثابتة التي تحلَّى بها الإمام، أراد أن ينقلها إلى العلماء لئلا يُرْهِبَهمُ الموروثُ ويحجُبَهم عن الحقيقة والاستعلان بها ولو كلفهم الحكم ببطلان رواية من الروايات الثابتة عند المحدثين متى جاءت مخالفة للقرآن.

أما صحة الروايات وعدمها فمرهون بعرض كل ما نسب إلى النبي على كتاب الله كائنا من كان ذلك الراوي وفي أي عصر من العصور عاش؛ فالسؤال لا يكون عن الراوي إذا تعارضت روايته مع الكتاب، لأن الحكم يجب أن يصدر على الرواية باعتبارها نصا قد يكون صحيحا وقد لا يكون؛ أما الحجة القاطعة التي لا يختلف عليها الموافق والمخالف للإمام فبيِّنة لا يمكن ردُّها عقلا ولا نقلا، إذ إن الأمَّة برُمَّتها أجمعت على الاعتقاد بالكتاب وتواتره، وأنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أما المنقول عن النبي بواسطة الناس فهو عرضة للنقد، خصوصا وأن النقلة والمحدثين من الممكن أن يقعوا في الكذب والخطأ والوهم والتعصب ضدً من خالفهم ورفض روايته وتكذيبه واتهامه بشتى أنواع التهم المسيئة إلى شخصه ورواياته.

حوار الرضا مع الزنادقة وانفتاحه عليهم وتوجيههم بالعقل والمنطق:

لم يكن الإمام الرضا في مسيرته الإصلاحية متقوقعا يحتجب عن الخلق ويعتزل الناس، وهو الذي كان يفتيهم في مسجد جده رسول الله وهو ابن نيف وعشرين عاما، فكان يعيش بين الناس ويحيا مشاكلهم ويقدِّم لهم الحلول، ويُساعدهم في كل شأن، كما كانت أبوابه مفتوحة لكل السائلين، هذا إلى جانب المجالس والمناظرات التي طالما عقدها المأمون للعلماء المبرزين من المسلمين ومن أتباع الديانات كي يطرحوا أسئلتهم على الرضا؛ وهذه المناظرات أثبتت بالدليل القاطع إمامته وفضله ومرجعيته.

ومن بين الناس الذين طالما قصدوا الرضا ووقفوا عند رؤاه وحاولوا محاورته أولئك الزنادقة الذين كانوا موضع ازدراء واحتقار من قبل العلماء، لكن أبواب الرضا كانت مشرعة لهم، يدخلون عليه ويسألونه أو يبدأهم السؤال ليحرك عقولهم نحو الحقيقة.

دخل رجل من الزنادقة على الرضا وعنده جماعة؛ فقال له أبو الحسن عليه السلام:

"أيُّها الرجل: أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ القولُ قولَكم - وليسَ هو كما تقولون - أَلَسْنا وإِيَّاكُمْ شَرْعًا سواء، لا يَضُرُّنا ما صلَّيْنا وصُمْنا وزَكَّيْنا وأَقْرَرْنا؟ فَسَكَتَ الرجل.

ثم قال أبو الحسن عليه السلام: وإِنْ كانَ القولُ قولَنا - وهوَ قولُنا - أَلَسْتُمْ قَدْ هَلَكْتُمْ ونَجَوْنا؟[٤٠].

لقد بدأ الإمام الرضا بطرح سؤاله على الرجل الذي ينظر إليه الناس نظرة ازدراء، وما يلفت انتباهنا هو أنَّ الرجل لم يمنعه مانع من الدخول على الرضا والإصغاء إليه، وهذا يؤكد على الانفتاح الكبير الذي كان يتمتع به الإمام ويمارسه ممارسة تعليمية تحمل مقلِّديه وتلامذته على احترام الآخر؛ وهذا السلوك غير المتوقع يُعَدّ مدرسة متميزة رائدة في ذلك العصر الذي كان يُعتبر المخالفُ فيه لسياسة الدولة الدينية مارقا يُسجن ويُعذَّب بل يُقتل باسم الدين.

لكن الإمام الرضا الذي يطرح السؤال مبتدئا: أرأيت إن كان القولُ قولَكم، ورأيُكم الذي يحملكم على الهُزْءِ بالدِّين والمؤمنين حقًّا؛ ألا نكون متساوين، ولن يَضُرَّنا الالتزام بصلواتنا وعبادتنا وأداء واجباتنا والأوامر الإلهية؟ مع أن الواقع والعقل والمنطق يقضي بفساد رأيكم...

فسكت الرجل متفاجئا بطرح الإمام وبسؤاله، إذ لم يكن يتوقع منه مثل هذا السؤال العقلاني الذي بهته وفاجأه وجاء مخالفا كل توقعاته.

ثم يطرح الإمام سؤالا آخر يبهت الرجل؛ إذ ما الذي سيحدث إذا كان المؤمنون على الحق؟ ألن يهلك المخالفون ويندموا ندما ما بعده ندم، في حين تكون النجاة للمؤمنين الذين هزِئ بهم غير المؤمنين؟؟!

بهذه الطريقة حاور الإمام المخالفين وغير المؤمنين، ولم يمنعه مانع من استيعاب العقول كل العقول، واحتواء الناس كل الناس، وفتح الأبواب أمامهم ليكون الإيمان عن قناعة وتعقُّل، لا عن تقليد واتباع طقسي لا يتحرك معه عقل ولا يقوده فكر؛ أما سكوت المتلقي أو طرحه سؤالا آخر فهو أكبر دليل على أن برهان الإمام وحججه وبيانه وتأثيره وصدقه وتواضعه ومحبته للآخر؛ كل ذلك كان له فاعليته في المجتمع بصفته مرجعا محبوبا، وموئلا ودودا يرغب كل الناس بالتقرب منه وسماع حديثه.

وإذ ثبتت مرجعية الإمام للمقلِّد ولغير المقلد، فإنَّها شمَلت كل العقلاء من أتباع الديانات، كما احتوت غير المؤمنين الذين احتكموا إلى فكر الرضا وفلسفته وعبقريته التي طالما انتشلتهم من براثن الضياع.

الخاتمة:

هذا البحث العلمي القائم على دراسة نماذج من إجابات الإمام الرضا عن أسئلة سائليه سلط الضوء على قضايا أساسية في حياة الإمام كان من المفترض أن تظل محلَّ دراسة واهتمام أتباع كل المذاهب الإسلامية، فضلا عن المفكرين الذين لم يتعرفوا إلى المرجعية التي تستطيع تبيان الحقائق وتوضيح المسائل وتصحيح المفاهيم.

لقد أظهر البحث:

- مكانة الإمام الرضا ومرجعيته المطلقة العامة للأمة الإسلامية، فلم يختلف على مرجعيته أحد من العلماء الذين عاصروه على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفكرية والعقدية.
- مرجعية آبائه الذين عانوا من ظلم وتعسف السلطات الحاكمة التي أهدرت دماءهم خوفا على السلطة والعرش والملك.
- طريقة الأئمة من أهل البيت في التعامل مع الأنظمة الحاكمة وعدم طمعهم بالحكم الذي كان من حقهم، وهذا يعني تقديم كل التضحيات من أجل الحقِّ المقدَّس القائم على الإصلاح وبناء المجتمعات الآمنة ونفع الناس.
- طريقة الإمام في التعامل مع كل السائلين وقدرته على إقناعهم وتقويم مسيرتهم.

- طبيعة تلقي السائلين لفكر الإمام وتغيير توجهاتهم من خلال الآفاق الصادمة التي كان يفتحها الإمام لهم عبر تصحيح القراءات والمفاهيم المحفوظة السائدة.
- تأثير الرضا في الحركة الصوفية، إذ أخذ عنه كبار المتصوفة الذين نُقلت عنهم علوم اللطائف والإشارات وكانوا يتبركون بخدمته ويستفيدون من معارفه.
- أهمية دراسة تراث الإمام الرضا الفكري والديني والعقدي والفلسفي والسياسي والاجتماعي الذي كان له أثر إصلاحي على كل صعيد.
- استمرارية مرجعية الرضا رغم حجب المجتمعات الإسلامية المتعلمينَ والدارسين عنها، ووجوب دراسة الأسباب الكامنة خلف إسدال الستار عن هذه المرجعية العظمى ودورها الأساس في المجتمعات الإنسانية جمعاء.

هوامش البحث

(١) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط (١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م)، مج١ ج٢، ٢٣٤/١

(٢) المأمُون العبَّاسي، (١٧٠ - ٢١٨ هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣ م) عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، ابو العباس: سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعاظم الملوك، في سيرته وعلمه وسعة ملكه. وعرّفه المؤرخ ابن دحية بالإمام "العالم المحدّث النحويّ اللغوي". ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين (سنة ١٩٨ هـ فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة. وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليوس وغيرهم، فاختار لها مهرة التراجمة، فترجمت. وحض الناس على قراء تها، فقامت دولة الحكمة في أيامه. وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والأنساب. وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، لولا المحنة بخلق القرآن، في السنة الأخيرة من حياته. وكان فصيحا مفوها، واسع العلم...

الزركلي، خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥ (أيار / مايو ٢٠٠٢ م)، (٤/ ١٤٢).

(٣) وهي مدينة بخراسان، بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية فتحت في أيام عثمان بن عفان... ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر- بيروت، ط٢ (١٩٩٥م)، مج٧ ج٧، (٤/ ٤٩)

(٤) سَنَابَاذُ بالفتح: قرية بطوس فيها قبر الإمام علي بن موسى الرِّضا وقبر أمير المؤمنين الرشيد، بينها وبين مدينة طوس نحو ميل. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، (٣/ ٢٥٩).

(٥) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ط (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، مج٢٩ ج٢٩، (٢٢/ ١٥٤)

(٦) ابن حبان، محمد بن حبان الدارمي البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، الثقات، وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، مراقبة، محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ط١(١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م)، مج٩ ج٩، (٨/ ٤٥٦)

(٧) النبهاني، يوسف بن إسماعيل، جامع كرامات الأولياء، تح: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢ (١٤٢٢ ه - ٢٠٠٢ م)، مج٢ ج٢، ٢٥٦/٢.

(٨) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (٢٢/ ١٥٤)

(٩) سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله (٥٨١ - ٦٥٤ هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ريحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا، ط١ (١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م)، مج٢٣ ج٢٣، (١٣/ ٣٨٨)

(١٠) سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، (١٣/ ٣٨٨)

(١١) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (١٠/ ١٢٠)

(١٢) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات (٢٢/ ١٥٦)

(١٣) ابن حبان، محمد بن حبان الدارمي البُستي، الثقات، (٨/ ٤٥٦)

(١٤) أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (المتوفى: ٤٣٠هـ)، تاريخ أصبهان = أخبار أصبهان، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١(١٤١٠ هـ -١٩٩٠م)، مج٢ ج٢، (١/ ١٧٤) قال: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ الْمُعَدَّلُ الْأَصْبَهَانِيُّ بِنَيْسَابُورَ، ثنا أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ وَمَوْلِدُهُ بِأَصْبَهَانَ، ثنا أَبُو الصَّلْتِ عَبْدُ السَّلَامِ بْنِ صَالِحٍ الْهَرَوِيُّ

(١٥) ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي (المتوفى: ٩٧٤هـ)، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، تح: عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة - لبنان، ط١ (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، مج٢ ج٢، (٢/ ٥٩٤) - المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي (المتوفى: ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، تعليق: ماجد الحموي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط١ (١٣٥٦هـ)، مج٦ ج٦، ٤٨٩/٤.

(١٦)مَعْرُوف الكَرْخي، (٠٠٠ - ٢٠٠ هـ = ٠٠٠ - ٨١٥ م) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ: أحد أعلام لزهاد والمتصوفين. كان من موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به حتى كان الإمام أحمد ابن حنبل في جملة من يختلف إليه. ولابن الجوزي كتاب في (أخباره وآدابه). **الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، (٧/ ٢٦٩)**

(١٧)من المعروف أن الطرق الصوفية قد أخذت عن الرجال الذين تحققوا من علم الظاهر والباطن، وفي هذا السياق نجد أن معظم أسانيد الصوفية تنتهي إلى الجُنَيْد، عَنْ سريٍّ السَّقَطِيِّ، عَنْ مَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ - رحمهُمُ اللهُ تعالَى -؛ يقول الذهبي: وَمَا بَعْدَ "مَعْرُوف" فمُنْقَطِعٌ؛ زَعَمُوا أَنَّهُ أَخذَ عَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ، وَصَحِبَ حبيباً العَجَمِيَّ، وَصَحِبَ الحَسَنَ البَصْرِيَّ، وَصَحِبَ عَلِيّاً - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وَصَحِبَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". **الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٦/ ٢٦٦)**؛ لكن المتتبع يجد أن هذا السند الذي يذكر الذهبي انقطاعه ليس هو السند الوحيد، فهناك سند متصل معروف غير مقطوع، بدءا من سند شيخ الطائفة "ابي الْقَاسِم الْجُنَيْد عَن خَاله سري عَن مَعْرُوف الْكَرْخِي عَن عَليّ بن مُوسَى الرضى عَن مُوسَى الكاظم عَن جَعْفَر الصَّادِق عَن مُحَمَّد الباقر عَن زين العابدين عَن ابيه الْحُسَيْن بن عَليّ عَن ابيه عَليّ عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم". **الجُنْدي محمد بن يوسف اليمني (المتوفى: ٧٣٢هـ)، السلوك في طبقات العلماء والملوك، مكتبة الإرشاد - صنعاء، ط٢ (١٩٩٥م)،تح: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مج٢ ج٢، (٢/ ٦٠)**؛ فهذا السند متصل لا انقطاع فيه؛ وهنا يتأكّد لنا على أن المتصوفة قد أخذوا معاني الحكمة والطريق عن آل البيت النبوي؛ وهذا المبحث يحتاج إلى تفصيل في موضعه؛ والله تعالى أعلم.

(١٨) (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري، القشيري، الشافعي (ابو القاسم، زين الاسلام)؛ صوفي، مفسر، فقيه، أصولي، محدث، متكلم، واعظ، أديب، ناثر، ناظم... من تصانيفه: التيسير في التفسير، حياة الارواح والدليل الى طريق الصلاح، الرسالة القشيرية في التصوف، الفصول في الأصول، وأربعون حديثا. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، مج١٥ ج١٥، (٦/ ٦)

(١٩) المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ٤٨٩/٤.

(٢٠) ابن حبان، محمد بن حبان الدارمي البُستي، الثقات، (٨/ ٤٥٦)

(٢١) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١ (١٣٢٦هـ)، مج ١٢ ج١٢، (٧/ ٣٨٨)

(٢٢) الفتح بن يزيد: هو أبو عبد الله الجرجاني صاحب المسائل، نسبوا إليه مسائل رواها عن أبي الحسن. الكاظمي. **عبد النبي، تكملة الرجال، تح: الشيخ محمد صادق بحر العلوم، أنوار الهدى، العراق، ط١ (١٤٢٥هـ)، مج٣ ج٣، ٢٦٣/٢**

(٢٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تح: محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات، مج٧ ج٧، باب أدنى المعرفة، ح(١)، ١٤١/١.

(٢٤) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا، ١٢٢/١

(٢٥) قال النجاشي: " الحسن بن الجهم بن بكير بن أعين، أبو محمد الشيباني، ثقة، روى عن أبي الحسن موسى والرضا عليه السلام. **النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط١ (١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م)، مج١ ج١، ص:٥١.**

(٢٦) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا، ٥٤/٢

(٢٧) قال ابن فارس: "الْوَاوُ وَالْكَافُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى اعْتِمَادِ غَيْرِكَ فِي أَمْرِكَ. مِنْ ذَلِكَ الْوَكَلَةُ، وَالْوَكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ. يَقُولُونَ وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ. وَالتَّوَكُّلُ مِنْهُ". ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر ط (١٣٩٩ ه - ١٩٧٩ م)، مج٦ ج٦، مادة "وكل"

(٢٨) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة "وضع"

(٢٩) الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط ٥ (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، مج١ ج١، مادة "وضع"

(٣٠) البلخي المذكور في الرواية أغلب الظن عندي أنه شقيق بن إبراهيم البلخي العارف بالله (ت:١٩٤ هـ - ٨١٠ م) لأن سؤاله ينم عن مستوى إيماني معرفي عال؛ وقد جاء في ترجمة شقيق البلخي في طبقات الصوفية: شَقِيق بن إِبْرَاهِيم أَبُو عَليّ الْأَزْدِيّ؛ من أهل بَلخ حسن الجري على سَبِيل التَّوَكُّل وَحسن الْكَلَام فِيهِ وَهُوَ من مشاهير مَشَايِخ خُرَاسَان وَأَظنهُ أول من تكلم فِي عُلُوم الْأَحْوَال بكورة خُرَاسَان؛ كَانَ أستاذ حَاتِم الْأَصَم، صحب إِبْرَاهِيم بن أدهم وَأخذ عَنهُ الطَّرِيقَة، وَأسْندَ الحَدِيث. **السلمي، محمد بن الحسين النيسابوري (المتوفى: ٤١٢ هـ)، طبقات الصوفية، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت،ط١(١٤١٩هـ ١٩٩٨م)، مج١ ج١، (ص: ٦٣)**

وترجم له في الأعلام فقال: "شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي (ت: ١٩٤ هـ -٨١٠ م)، أبو علي: زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان. ولعله أول من تكلم في علوم الأحوال (الصوفية) بكور خراسان. وكان من كبار المجاهدين. استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر)". الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام (٣/ ١٧١)

(٣١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، باب (٢٨) الكون والمكان، ح(٢)، ١٤٣/١.

(٣٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، باب (٣٠) النهي عن الكلام في الكيفية، ح(٩)، ١٤٨/١-١٤٩.

(٣٣) السلمي، محمد بن الحسين النيسابوري، طبقات الصوفية، (ص: ٦٣)

(٣٤) القمي، عباس بن محمد رضا، الكنى والالقاب، مكتبة الصدر - طهران، ط (د.ت)، مج٣ ج٣، (٥٠/٢)

(٣٥) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب،تح: يوسف البقاعي، دار الأضواء - بيروت، ط٢ (١٩٩١ م - ١٤١٢ هـ)، مج٣ ج٣، ٢٨٠/٣ - بحار الأنوار، ٣٨/٤٦

(٣٦) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١(١٤١٢ هـ)، مج٥ ج٥، (٤/ ٧)

(٣٧) صفوان بن يحيى أبو محمد البجلي بيَّاع السايري(بيَّاع السابري، أي: بيَّاع القماش أو الثياب الرقيقة)، كوفي، ثقة ثقة، عين، روى أبوه عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى هو عن الرضا عليه السلام، وكانت له عنده منزلة شريفة، ذكره الكشي في رجال أبي الحسن موسى عليه السلام، وقد توكل للرضا وأبي جعفر عليهما السلام وسلم مذهبه من الوقف، وكانت له منزلة من الزهد والعبادة، وكان جماعة الواقفة بذلوا له مالا كثيرا. النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ص:١٩٣.

(٣٨) ورد ذكر أبي قرة ممن قدِموا على الإمام الرضا وسألوه في مسائل، أما أبو قرة صاحب الجاثليق فكان نصرانيا، وأما أبو قرة المحدث فأغلب الظن أنه أبُو قُرَّة موسى بن طارق اليماني الزبيدي المتوفى سنة ٢٠٣ وهذا يعني أنه كان معاصرا للإمام. قال الزركلي في الأعلام: "موسى بن طارق اليماني الزبيدي، أبو قرة: عالم بالسنن والآثار، ثقة مأمون من أهل زبيد، وَلِيَ قضاءَها، وكان يكثر التردد بينها وبين عدن والجند ولحج، وله بكل منها أصحاب نقلوا عنه واشتهروا بصحبته. أدرك نافعا القارئ وأخذ عنه. وتوفي بزبيد. له مصنفات، منها كتاب (السنن) على الأبواب. الأعلام للزركلي (٧/ ٣٢٣). وقال ابن حجر فيه: "أبو قُرّة بضم القاف، الزَّبيدي بفتح الزاي؛ القاضي: ثقة يغرب من التاسعة. قال أبو حاتم محله الصدق؛ وذكره ابن حبان في الثقات، وقال كان ممن جمع وصنف وتفقه وذاكر؛ يغرب. قلت صنف كتاب السنن على الأبواب في مجلد رأيته ولا يقول في حديثه حدثنا إنما يقول ذكر فلان وقد سئل الدارقطني فقال كانت أصابت كتبه علة فتورع أن يصرح بالإخبار وقال مسعود عن الحاكم ثقة مأمون وقال الخليلي ثقة قديم". **ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٤٩) - ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تقريب التهذيب، تح: محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا، ط١ (١٤٠٦ - ١٩٨٦ م)، مج١ ج١، (ص: ٥٥١)**

(٣٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، باب (٣١) في إبطال الرؤية، ح(٢)، ١٤٩/١-١٥٠.

(٤٠) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا، ١٢٢/١.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

١- ابن حبان، محمد بن حبان الدارمي البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، الثقات، وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، مراقبة، محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ط١(١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م)، مج٩ ج٩

٢- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (المتوفى: ٨٥٢هـ)

- تقريب التهذيب، تح: محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا، ط١ (١٤٠٦ - ١٩٨٦ م)، مج١ ج١

- تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١ (١٣٢٦هـ)، مج ١٢ ج١٢

٣- ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي (المتوفى: ٩٧٤هـ)، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، تح: عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة - لبنان، ط١ (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، مج٢ ج٢

٤- ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب،تح: يوسف البقاعي، دار الأضواء - بيروت، ط٢ (١٩٩١ م - ١٤١٢ هـ)، مج٣ ج٣

٥- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (المتوفى: ٤٣٠هـ)، تاريخ أصبهان = أخبار أصبهان، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١(١٤١٠ هـ -١٩٩٠م)، مج٢ ج٢

٦- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر ط (١٣٩٩ ه - ١٩٧٩ م)، مج٦ ج٦، مادة "وكل"

٧- الجُنْدي محمد بن يوسف اليمني (المتوفى: ٧٣٢هـ)، السلوك في طبقات العلماء والملوك، مكتبة الإرشاد - صنعاء، ط٢ (١٩٩٥م)،تح: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مج٢ ج٢

٨- الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط ٥ (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، مج١ ج١، مادة "وضع"

٩- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١(١٤١٢ هـ)، مج٥ ج٥

١٠- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزأُوغلي بن عبد الله (٥٨١ - ٦٥٤ هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ريحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب،

فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا، ط١ (١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م)، مج٢٣ ج٢٣

١١- السلمي، محمد بن الحسين النيسابوري (المتوفى: ٤١٢هـ)، طبقات الصوفية، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت،ط١(١٤١٩هـ ١٩٩٨م)، مج١ ج١

١٢-الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط (١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م)، مج١ ج٢

١٣-الزركلي، خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥ (أيار / مايو ٢٠٠٢ م)

١٤-الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ط (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، مج٢٩ ج٢٩

١٥-عبد النبي، تكملة الرجال، تح: الشيخ محمد صادق بحر العلوم، أنوار الهدى، العراق، ط١ (١٤٢٥هـ)، مج٣ ج٣

١٦-القمي، عباس بن محمد رضا، الكنى والالقاب، مكتبة الصدر - طهران، ط (د.ت)، مج٣ ج٣

١٧- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، مج١٥ ج١٥

١٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تح: محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات، مج٧ ج٧

١٩-المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي (المتوفى: ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، تعليق: ماجد الحموي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط١ (١٣٥٦هـ)، مج٦ ج٦

٢٠-النبهاني، يوسف بن إسماعيل، جامع كرامات الأولياء، تح: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢ (١٤٢٢ ه - ٢٠٠٢ م)، مج٢ ج٢

٢١-النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط١ (١٤٣١ ه - ٢٠١٠ م)، مج١ ج١

٢٢- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، دار صادر- بيروت، ط٢ (١٩٩٥م)، مج٧ ج٧.